للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢١ —

شاعر الملك فؤاد

وهذا فصل آخر مما يتصل بموضوع الحديث عن الرافعي في النقد ؛ إذ كان هو أولَ مابين الرافعي والأستاذ عبد الله عفيفي ؛ فإني لأقدّم به للقول عن خبر ما كان بينهما من الخصومة التي مهّدت للرافعي من بعدُ أن ينشئ كتابه (على السَّفود) في نقد ديوان الأستاذ العقاد

* * *

في سنة ١٩٢٦ كان ناظر الخاصة الملكية هو المرحوم محمد نجيب باشا ، وكانت السياسة المصرية تسير في طريق ذي عِوَج ، مَهَّد لطائفة من رجال الحكم والسياسة أن ينشئوا حزباً ينسبون إليه الولاء للقصر ؛ فهيّئوا لطائفة غيرهم من السياسيين أن يزعموا أنهم أولياء على حقوق الشعب ، حِراصٌ على سلطة الأمة ، فنشأت بذلك قوة بإزاء قوة ، وتناظر سلطان وسلطان ، وكان لكل طائفة لسان وبيان ...

في تلك الآونة ، تقدم المرحوم محمد نجيب باشا إلى الرافعي أن يكون شاعر الملك ؛ فلقي ذلك العطفَ الكريم بحقه من الشكر والرضى وعرفان الجميل

وشاعرُ الملك أو شاعرُ الأمير لقب قديم في دولة الأدب ، وله في تاريخ العربية تاريخ ، منذ كان النابغة والنعمان ، وزهير وهرم بن سنان ، والأخطل وبنو أمية ، والنواسيّ وأبو العتاهية في بني العباس ، والبحتري في إمارة المتوكل ، والمتنبي في بلاط سيف الدولة ؛ إلى شعراء وملوك لايحصيهم العدّ . ولا ننس في تاريخ مصر الحديث أن نذكر الشاعرين : أبا النصر ، والليثي ؛ وليس بعيداً عنا أمير الشعراء المرحوم شوقي بك « شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية » ، وقد كان من الولاء والحب لمولاه بحيث لم تطمئن السلطة الحاكمة إلى بقائه في مصر بعد خلع الخديو عباس ، فنفتْه إلى الأندلس

ولقد كان شاعر الملك قبل الرافعي هو الشاعر المرحوم عبد الحليم المصري ؛ فلما مات تطلعت إلى موضعه نفوس الشعراء ؛ وكان أكثرهم زلفى إلى هذا المنصب هو المرحوم حافظ ابراهيم ، إذ كان ما يزال في نفسه شيءٌ يهفو به إليه ، مما كان بينه وبين شوقي من المنافسة الأدبية في صدر أيامه على رتبة شاعر الأمير

* * *

وعاد الرافعي إلى الشعر بعد هجر طويل ؛ إذ كان آخر ما نشر من الشعر هو ديوان النظرات في سنة ١٩٠٨ ، ثم لم يقل بعده إلا قصائد متفرقة في آماد متباعدة ، لحادثة تنبعث لها نفسه ، أو خبر يتفضل به جنانه . وكان أكثر ما قال الشعر فيما بين ذلك ، في سنة ١٩٢٤ ، في إبان العاصفة الهوجاء من حبِّ فلانة ، وأكثر شعره عنها منثور في كتبه الثلاثة التي أنشأها للحديث عن هذا الحب ؛ ثم انبعث البلبل ينشد أهازيجه من جديد ، على الشجرة

« يتبع »

محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

(1) Sturt & Oakden : Metter & Melhod.

الفينانة فى حديقة قصر الملك ، فصغت إليه القلوب وأرهفت له الآذان ...

واستمر يرسل قصائده فى مديح الملك لمناسباتها ، من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٠ ، حتى وقع بينه وبين الأبراشى باشا أمر — بعد موت المرحوم نجيب باشا — فسكت ، وعاد ما بينه وبين الشعر إلى قطيعة وهجران ، بعد ما أنشأ الخصومة بينه وبين عبدالله عفيفي ... وعند الأستاذ إسماعيل مظهر تفصيل ما سأرويه من خبر هذه الحادثة بعد

* * *

وقصائد الرافعى فى مديح الملك فؤاد نظام وحدها فى شعر المديح : تقرأ القصيدة من أولها إلى آخر بيت فيها ، فتقرأ قصيدة فى موضوع عام من موضوعات الشعر ، ليس من شعر المديح ولا يمتّ إليه ؛ فلولا بيتان أو أبيات فى القصيدة الحسينية أو السبعينية يخص بهما الملك ويمدحه ، لما رأيتها إلا قصيدة من باب آخر ، تسلكها فيما تشاء من أبواب الشعر إلا باب المديح . إقرأ قصيدة الخضراء — يعنى الراية — وقصيدة الصحراء فى رحلة الملك إلى الحدود الغربية ، واقرأ غيرهما ؛ فإنك واجدٌ فيه هذا الذى ذكرت ، وواجدٌ فناً فى الشعر تعرف به الرافعى فى المديح فوق ما عرفتَ من فنونه ؛ فإذا حقّقْتَ هذه الملاحظة فى مدائح الرافعى وثبتّ عندك ، فارجع إلى تاريخ هذه الفترة من السياسة المصرية ثم التمس لها تفسيراً من التفسير ، أو فارجع إلى تاريخ الرافعى نفسه واذكر ما تعرف من أخلاقه تعرف تفسيرها ومعناها

لقد كان الرافعى يجهل السياسة جهلاً تاماً ، ولكن كانت فيه أخلاق السياسيّ ناضجة تامة : من الاحتيال ، والروَغان ، وحسن الإعداد للتخلص عند الأزمة . بلى كانت له أخلاق السياسيين فى إبداع الحيلة والاستعداد للمخرج ، ولكن لم يكن له فى يوم من الأيام هوى مع أحد من أقطاب السياسة ، أو يعرف له رأياً فيها ، أو يدرى من خبرها أكثر مما يدري رجل من سواد الناس يقرأ جرائد المتطرفين والمعتدلين على السواء

* * *

ولم يكن للرافعى أجر على هذا المنصب فى حاشية الملك ، إلا الجاه وشرف النسب ، وجواز مجانى فى الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد ، ودلال وازدهاء على الموظفين في محكمة طنطا الكلية الأهلية ، حيث كان يعمل جنباً إلى جنب مع مئات من الكتبة والمحضرين وصغار المستخدمين ... ... !

ولكنه إلى ذلك قد أفاد من هذا النسب الملكى فوائد كبيرة ؛ فقد تعطف الملك الكريم فأمر بطبع كتاب (إعجاز القرآن) على نفقة جلالته ؛ كما أذن بإرسال ولده محمد فى بعثة علمية لدراسة الطب فى فرنسا ؛ فظل يدرس فى جامعة ليون إلى سنة ١٩٣٤ على نفقة الملك ، حتى شاء الإبراشى باشا لسبب ما أن يقطع عنه المعونة الملكية ولم يبق بينه وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر ، فقام أبوه بالإنفاق عليه ما بقى . ومن أجل ما كان يرسل إلى ولده كل شهر فى فرنسا من نفقات العيش والجامعة كان هو يعمل فى (الرسالة) بأجر ، وإن عليه من أعماله الخاصة ما ينوء به جسدُه وتُنتَهك أعصابه ... !

* * *

قلت إن الرافعى ظل فى حاشية الملك فؤاد إلى سنة ١٩٣٠ ثم كان بينه وبين الأبراشي باشا أمر — بعد موت المرحوم نجيب باشا — فسكت ؛ إذ خشى أن تعصف به السياسة أو تعبث به الدسائس فترمى به إلى تهلكته ...

حدثنى الرافعى قال : « كنت في عهد نجيب باشا أذهب إلى القصر فيلقانى بوجه طلق ، ويحتفى بى ، ويبسط لى وجهه ومجلسه ، ويثلج صدرى بما يروى لى من عطف الملك ورضاه ؛ فما أغادر القصر إلا وأنا أشعر كأن نفسى تزداد عمقاً وتمتد طولا وتنبسط سعة ؛ ثم جاء الابراشى باشا ، فلم تدعنى داعية إلى لقائه حتى كان يومٌ وجدتُنى فيه منطلقاً إلى هناك ، لأسأله فى أمر من الأمر ...

قال : « وذهب الساعى إليه بالبطاقة ودعانى إلى الانتظار ، فجلست ، وما أظن إلا أنها دقائق ثم أُدعى إليه ... وطال بى الانتظار ، ومضت ساعة ، وساعة ، وساعة ، وأنا فى هذا الانتظار بين الصبر والرجاء ؛ وحولى من ذوى الحاجات وجوه عليها طوابع ليس على وجهى منها ، ونظرت إليهم وإلى نفسى فضجرت ، فمدت أستأذن عليه وقد خال بنفسى أنه قد نسى مكانى ، فعاد إلىّ حاجبه يقول : الباشا يعتذر إليك اليوم ، ويسألك أن تمر به غداً فى الساعة كذا ...

قال الرافعي : « وآذاني ذلك ونال مني ، ولكني اعتذرت عنه . فلما كان الغد ، جاءني النبأ يأتي إلي زَيْنَ الشباب المرحوم أمين الرافعي بك ؛ فآذاني الهمُّ وثقل عليّ ، وضاقت نفسي بما فيها وتوزعتني الوساوس والآلام ؛ وما نسيت وأنا أمشي في جنازة الفقيد العظيم أن عليّ موعداً بعد ساعات ، فما هيل عليه التراب حتى كنت في طريق عدواً إلى القصر وفاء بالوعد الذي اتَّعدْت ، وجعلت من وراء ظهري ما عليّ من واجب المجاملة لمن جاءوا يعزُّونني في أخي وابن عمي وصاحب الحقوق عليّ . لقد كان الذي مات زعيما من زعماء الوطنية له مقداره ، ولكني جعلت الوفاء بالوعد فوق ما عليّ من الواجب للزعيم الذي مات ؛ وإنه لأخي ، وإن في أعراقه من دمي وفي أعراقي ... ! »

قال : « ووقفت بالباب أنتظر أن يؤذن لي فأدخل ، وطال بي الانتظار كذلك وإن في دمي جمرات تتلهب . ومضت ثلاث ساعات وأنا في مجلس ذاك أطالع وجوه الداخلين والخارجين من غرفة الباشا ولا يؤذن لي ... ! »

قال الرافعي : « وهاجت كبريائي وثارت حماقتي ... لا أكذبك يا بنيّ ، إن فيّ لحماقة . ولكن ... إن صرامة عمر بن الخطاب قد انحدرت إليّ في أصلاب أجدادي من النسب البعيد ؛ ولكن صرامة عمر حين انحدرت إليّ صارت حماقة . إن هذه الحماقة عندي يابني هي تلك البقية من صرامة عمر ، بعد ما تحفَّظتْ إليّ هذا الزمن البعيد في تاريخ الأجيال ... ![1] »

قال : « ولما بلغ الحنق بي مبلغه نهضت وفي يدي عصاي ، فتقدمت إلى الباب خطوة فدفعته بالعصا وأنا مغيظ محنق ، فإذا أنا أمام الإبراشي باشا وجهاً لوجه ، وإلى جانبه رجل أوربي يحدثه ...، فلم أعبأ ، ولم أكترث ، ولم أذكر وقتئذ أين موضعي وموضعه ، فقلت ما كنت أريد أن أقول ، وانتصفت لنفسي ، وثارت لكبريائي . وأحسبني قد خرجت يومئذ عن حدود اللائق في الحديث معه ، ولكني لم أُلْقِ بالا إلى شيء من ذلك . وما كان في نفسي إلا أنني قد قلت ما ينبغي أن أقول لأحفظ كرامتي وأصون نفسي ، ولا عليّ بعد ذلك من غضبه أو رضاه ... »

« ولكن ... ولكنه مع ذلك لم يغضب ، ولم يعتب ، بل اعتذر إليّ وألحّ في الاعتذار ... وصدَّقْته حين ابتسم ... ! »

* * *

وأسرها الإبراشي باشا في نفسه ؛ فلما كان الموسم التالي نظم الرافعي قصيدته وأرسل بها إلى القصر ، ورُصِفَت حروفها مشكولة في مطبعة دار الكتب — كما جرت العادة — ثم أُرسلت بحروفها مجموعة إلى الجريدة المختارة ، ومعها قصيدة أخرى مرصوفة مشكولة مزيَّنة ، من نظم الأستاذ عبد الله عفيفي المحرر العربي بديوان جلالة الملك . ونُشرت القصيدتان جنباً لجنب في جريدة واحدة ، وعلى نظام واحد ، وكلاهما في مدح الملك ، فما يفرق بينهما في الشكل إلا توقيع الشاعرين في ذيل الكلام

وقرأ الرافعي قصيدة منافسه الجديد ، فثار وزمجر ، وقال لمن حوله : « أترون كيف يصنع بي ؟ إنه يريد أن ينال مني . (يريد الأبراشي) أهذا شعر يقرن إلى شعري ؟ أيراني وإياه على سواء ؟ أيحسب أن الأدباء سيخدعهم هذا الزخرف في الطباعة فيجعلون صاحبه شاعراً من طبقتي أو يجعلونني شاعراً من طبقته ؟ أيراني من الهوان بمنزلة الذي يرضى عن هذا العبث ؟ أفيريد أن يمهِّد لصاحبه حتى يخلعني عن مرتبة « شاعر الملك » ليجعله مكاني ؟ أم يراه أهلاً ليقاسمني المنزلة والمقدار عند صاحب التاج ... »

ومضى الرافعي يومه يفكر ويقدر ، وما كان إلا في مثل حال الرجل الذي يعود إلى داره التي يملك فإذا له فيها شريك يحتلها بقوة ساعده لا بحقه ؛ فما يجد له حيلة في إجلائه عن الدار إلا أن يرفع أمره إلى القاضي ... وكان القاضي عند الرافعي في هذه القضية هو الرأي الأدبي العام ، فرفع أمره إليه ...

وتحدث بنيته إلى صديقه الأستاذ اسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور ، فأوسع له صفحات من مجلته ليبدأ الحملة على الأستاذ عبد الله عفيفي في مقالات عنيفة صارخة بعنوان : على السَّفُّود !

وما كان الرافعي يجهل أنه يتناول موضوعاً دقيقاً حين يعرض لنقد هذا الشاعر ؛ فإنه ليعلم علم اليقين أن هذه المقالات سيكون لها صدى بعيد ، تصل به إلى آذان لا يسره أن تعلم من كاتب هذه المقالات ، فتنكر وأخفى نفسه ...

« لها بقية »

محمد سعيد العريان

(١) تشبه هذه الكلمة أن تكون هي كلمة الرافعي بنصها كما حكاها لي ، وقد كتبتها في مذكراتي بعد حديثه بساعات ، فنقلتها اليوم من هذه المذكرة